التطور الموسيقي الدرامي الغنائي في مصر خلال القرن العشرين

د. سليم الزغبي[1] (فلسطين)

ملخص

لا شك أن الموسيقى العربية تتمتع بعراقة وتاريخ كبير يوفر مجالات كثيرة للبحث الأكاديمي، ولكن الارتباط الفني في تعدد ثقافي مميز جعل التطور والتنمية الفنية في التراث الموسيقي العربي ذو مجالات متعددة ومتناسقة. ومنها بالطبع الغناء (استخدام اللغة والأشعار) والفنون الدرامية مثل الرقص والتمثيل.

وهناك أدلة علمية واضحة أن الموسيقى العربية اليوم من أغنى التقاليد الموسيقية وأكثرها حيوية، مما يعكس تفاعلها التاريخي مع مختلف الثقافات من الشرق والغرب. اعتاد الموسيقيون العرب منذ القدم أن يبدعوا ويواصلوا إنتاج أشكال فنية وموسيقى تساهم في إثراء الحياة المجتمعية بكل جوانبها: ثقافيا وتراثيا وترفيهيا. ويبقى التأليف الموسيقي في نظام الموسيقى العربية يعتمد على تراكيب فاصلة محددة منذ قيام الفارابي بتحديده في القرن العاشر. إن مزيج الألحان والكلمات واستخدام الآلات الموسيقية يشكل نسيجا موسيقيا جميلا من مختلف الأشكال والتراكيب الموسيقية الحديثة منها الموسيقى الشعبية والأغاني العربية الخفيفة والأغاني العربية التي في أسلوب غربي وأيضا الكلاسيكية وغيرها. وهذا يؤدي إلى اتجاهات اجتماعية محددة التي تنتج أنواع مختلفة من الموسيقى العربية، أو الأنواع الموسيقية التي يمكن تصنيفها على نطاق واسع على أنها حضرية (موسيقى سكان المدينة)، أو ريفية (موسيقى سكان الريف)، أو شعبية (موسيقى مشابهة للتراث الموسيقي الشعبي).

ومن أهم مميزات الإبداع الموسيقي في هذا الإطار هو وجود عقلية موسيقية عربية منفتحة على تعطي أولوية لمبدأ التجانس الجمالي للبنية اللحنية والإيقاعية في جميع أنحاء العالم العربي. وهذا الانفتاح يشمل الموسيقى الحديثة والغربية أيضا. تقدم هذه الورقة مثالا على هذا التطور من خلال موسيقى عزيز الشوان.

---

[1] مستشار وخبير أمم متحدة متخصص في مجال الحاسوب وهندسة المعلومات والإتصالات الإلكترونية. درس الموسيقى دراسات خاصة. هو المؤسس الرئيسي لأكاديمية بيت لحم للموسيقى والرئيس السابق لها في عدة سنين. له العديد من الكتب عن الموسيقى بالعربية وعن حياة موسيقيين فلسطينيين أمثال سلفادور عرنيطة، يوسف خاشو، إلخ،. له أكثر من ثلاثين مؤلفا موسيقيا للبيانو وموسيقى الحجرة منها رباعيات وترية. ومن أعماله الطويلة سيمفونيتين (الثانية في مقام سي بيمول كبير "الإصرار") وكونشيرتو للبيانو وكونشيرتو للكمان وريكويام وباليه قوس فزح. ومؤخرا يعمل على كانتاتا "القدس" مستخدما النص من الشاعر العربي نزار قباني "يا قدس" للسوبرانو المنفرد والكورال والأوركسترا.

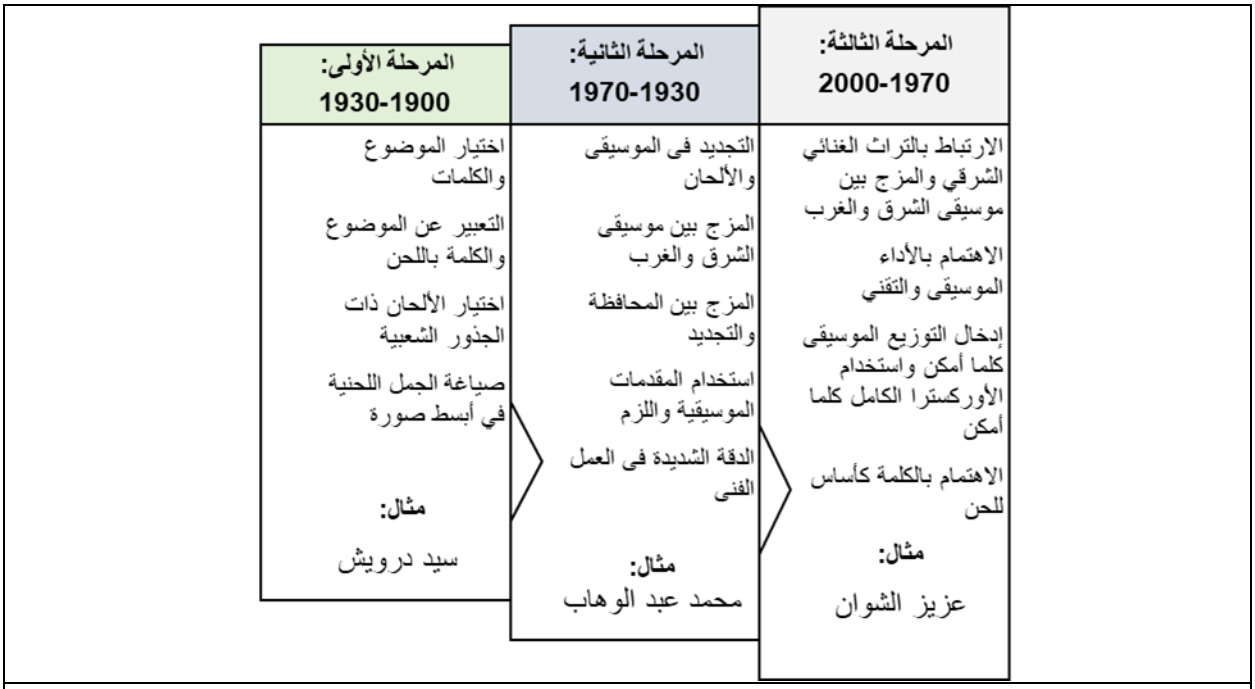

شكل رقم ١
تطور الموسيقى الغنائية العربية في القرن العشرين

المرحلة الأولى: ولادة الأغنية الحديثة

ولد سيد درويش في الإسكندرية وكان يعمل في البناء لكونه من عائلة فقيرة. وكان خلال العمل يرفع صوته بالغناء، مثيرا إعجاب العمال وأصحاب العمل، وتصادف وجود الأخوين أمين وسليم عطا الله، وهما من أشهر العاملين بالفن، في مقهى قريب من الموقع الذي كان يعمل به فعرضا عليه أن يصحبهم إلى بلاد الشام في رحلة فنية، كانت الجولة الأولى للانطلاق نحو الفن الموسيقي ودراسته وليس فقط الغناء حيث تمكن هناك من أن يتعلم الفن على أيدي فنانين كبار كما تمكن من التعلم على العود وإتقانه العزف. كما أتقن سيد درويش كتابة النوتة الموسيقية. وكان لإنجازه هذا أكبر الأثر في شهرته المتزايدة في التلحين والغناء في المجتمع وليس فقط في الوسط الفني. ولما عاد إلى مصر انهالت عليه الأعمال الفنية من تلحين لمسرحيات تعود لأشهر الفرق المسرحية مثل: فرقة نجيب الريحاني، وجورج أبيض وغيرهم. وهكذا خطت الأغنية العربية المرحلة الأولى من تطورها في القرن العشرين. ولكن القدر لم يهمله إذ توفي عن عمر ٣١ عاما، وتشير جميع المراجع أنه مات مسموما من الإنجليز أو الملك فؤاد بسبب أغانيه التي تحث الشعب على الثورة.

أصبحت نشأة الغناء العربي الحديث واضحة في موسيقى سيد درويش (١٨٩٢ □ ١٩٢٣) حيث كان من أوائل من بدأوا الأغنية العربية في العصر الحديث. وتعتبر الموضوعات التى طرقها سيد درويش مستجدة وغير متوقعة من المجتمع حيث أنها لم تكن لتخطر على بال أحد فى ذلك الوقت. ففي ذلك الوقت اقتصر الفن فيه على توفير التسلية والغناء، ولكنه كان مركزا على موضوع العشق والغرام. وكان الموسيقار سيد درويش يبحث عن شعور الإنسان من خلال أحلامه وأماله. وفي جميع أغانيه كان يخاطب المجتمع وليس أفرادا. كان اهتمامه بالموضوع والكلمات في الدرجة الأولى حيث استطاع من خلال ذلك أن يخرج من إطار

الفرد (مثل الأمير أو الشخصيات الغنية في المجتمع) كما عرفن الموسيقى في القرون السابقة إلى مخاطبة المجتمع وبهذا انتقلت الأغنية العربية من مجال الطرب واللهو الضيق إلى آفاق التعبير الواسع. وهكذا بدأت الأغنية العربية تخرج إلى عالم الإنسانية الواسع بخطوات كبيرة، جاعلا من هذه الرسالة هدفا لحياته. ولكنه في الفن الموسيقى والإبداع في التلحين كان محدودا لأنه كان منشغلا في بناء مفهوم الأغنية الحديثة. وكان جهده الفني مقتصرا على المبادئ الأساسية التالية:

١. اختيار الموضوع والكلمات
٢. التعبير عن الموضوع والكلمة باللحن
٣. اختيار النغمات ذات الجذور الشعبية
٤. صياغة الجمل اللحنية في أبسط صورة

وفي أخر مرحلة فنية من حياته القصيرة (٣١ عاما) بدأ يتجه نحو صياغة الألحان في تراكيب حديثة متطورة. كان يهتم في التعبير في موسيقاه اختيار كلمات اغانيه، وفي طريقة غنائه أيضا، لأى إحساس يتولد لدى السامع نتيجة سماعه لأنغام معينة، وهكذا كانت أغانيه تهتم في ماذا يمكن أن تولد من أحاسيس وليس البدء باختيار التركيب اللحني الذي يريده. وهكذا كانت الأغنية العربية المصرية في ذلك العصر تهتم لوجود معاني مسبقة قبل البحث عن كيفية صياغة الألحان والموسيقى التي يراد لها التعبير عن تلك المعاني.

وبكلمات أخرى كان يهتم للمعنى ويحاول التعبير عن الكلمات باللحن، فإن لم تكن الكلمات شعرا فموقفا مكتوبا فى أى صيغة حتى وإن كانت مجرد عنوان لقطعة موسيقية. وهذا النوع الأخير هو ما قصده سيد درويش وأراد العمل به، وقد أجاد فى ذلك بل هو الذى وضع هذا المبدأ في تأليف الأغاني العربية.

المرحلة الثانية: نضوج الأغنية والموسيقى المسرحية

الجيل من الموسيقيين الذين أتوا بعد سيد درويش كانوا في حيرة من أمرهم أولا ولكن مع مرور الزمن استطاعوا أن يصبحوا من أعلام الموسيقى الغنائية العربية ليس في مصر فقط وإنما في جميع القطار العربية. كان سبب حيرتهم أنهم وقفوا مشدوهين أما ما حققه سيد درويش بالرغم من وفاته المبكرة. لقد كانوا يتأملوا أعماله ويشعرون بشعورين متناقضين أمامها، أولهما التقدير الكامل لهذا الفنان والنظر إليه كقمة لا يمكن بلوغها، وثانيهما أنه عليهم مواصلة مسيرة هذا الأستاذ وتطوير الفن إلى أعلى مرحلة ممكنة.

وهكذا كان أحدهم وأكثرهم إبداعا: الموسيقار محمد عبد الوهاب.

ولد محمد عبد الوهاب في ٣ آذار/ مارس ١٩٠٧ في حي في القاهرة. وبسبب صوته الطفولي الجميل وحسن إداؤه بدأ الغناء في سن مبكرة في مسرحٍ محليٍ عندما كان عمرة سبعة سنوات. كما سجل أولى تسجيلاته

عندما كان عمره ١٣ عاما. وسرعان ما بدا بدراسة العود والموسيقى العربية التقليدية في معهد القاهرة للموسيقى العربية والتأليف الغربي في مدرسة أخرى. ولم يمض وقت طويل ونتيجة لصوته الجميل

وقدرته المذهلة على الارتجال على العود، حتى ازدادت شهرته بسرعة، وخاصةً في المجتمع ذي الطبقة المتوسطة والطبقة الأرستقراطية.

بدأ يعرف محمد عبد الوهاب منذ صباه أنه من الموسيقيين الشباب الذين كان كل جهدن أن يسير على خطى سيد درويش ويحافظ على مسيرة الموسيقى والأغاني العربية. ولكن سرعان ما تميز هذا الشاب بقدرة خلاقة على ابتداع ألحان جميلة وتأليفيها في قالب مميز. كان إنتاجه من الأغاني والموسيقى يشمل ألحانا كأنها من تلحين سيد درويش. وهكذا بدأ عبد الوهاب يصعد للقمة.

في عام ١٩٢٤، قدم الشاعر الشهير أحمد شوقي عبد الوهاب لأصدقائه الأثرياء وأصبح فنانًا مشهورًا في الحفلات الاجتماعية الراقية. كما أصبحت ألحان عبد الوهاب، مع كلمات شوقي محبوبة للغاية بين جميع فئات الناس.

أصبح عبد الوهاب محبوبا أيضا لدى الأمراء والملوك. وفي عصره إشتهر موسيقيون أخرون مثله عرفوا بالخمس الكبار (اسوة بالخمسة الكبار في روسيا). وهم فريد الأطرش، فيروز، عبد الحليم حافظ وأم كلثوم. وحين أصبحت صناعة الأفلام منتشرة أصبح واحدا من الممثلين المصرين القليلين الذين انتقلوا من الأفلام الصامتة إلى تأدية أدوارٍ غنائية ناطقة. وتوفي في ٤ أيار/ مايو ١٩٩١ إثر إصابته بجلطةٍ دماغية.

المرحلة الثالثة: انطلاقة الموسيقى المسرحية العربية العالمية

كانت المرحلة الثالثة من تطور الموسيقى الغنائية والمسرحية أكثر إنفتاحا على الغرب. ومن المنطق أنه حين أخذت أعمال الموسيقيين اكبار في المرحلة الثانية تنفتح على أسلوب وألحان من التراث الموسيقي الغربي حيث تواجدت ألحان وقوالب غربية ضمن تأليف الموسيقى والأغاني في هذه الحالة.

عزيز الشوان هو مؤلف موسيقى مصرى ينتمى الى الجيل الثاني من مؤلفي الموسيقى المصريين ؛الموسيقيين الذين عاشوا وأنتجوا موسيقى في المرحلة الثانية) □
ولد بالقاهرة فى السادس من مايو ١٩١٦ ، درس عزف الكمان وهو فى التاسعة من عمره ثم وقع له حادث منعه من مواصلة العزف فاتجه الى دراسة التأليف الموسيقى على يد الأستاذ الألمانى "جون فون إيرفيو" أستكمل دراسته الموسيقية مع الأستاذ الايطالى "ميناتو" ثم مع الأستاذ الروسى "ارولوفيتسكى" وفى عام ١٩٥٤ قاد حفلا قدم فيه اول مؤلفاته القصيد السيمفونى "عطشان يا صبايا" .

عاصر الشوان فترة الحكم الملكي في مصر ثم مرحلة الثورة الوطنية في عهد الضباط الأحرار عام ١٩٥٢. أدى ذلك إلى التحول الوطني في تفكيره الموسيقي حيث، اسوة بغيره من المؤلفين الموسيقيين، كان له صدى في الوعي الوطني. وفي تلك الفترة أصبحن الثقافة والموسيقى الروسية من أهم الموارد الفنية لتطوير قدرات الموسيقيين المصريين وحتى سبعينيات القرن العشرين.

عمل عزيز الشوان فى عدة شركات أجنبية إستقر بعدها في منصب مدير المركز الثقافى السوفييتى بالقاهرة وأستمر فى ذلك العمل لمدة أثنى عشر عاما كتب اثناءها عدة مؤلفات موسيقية مثل "اللوحة السيمفونية" "ابو سنبل" للكورال والأوركسترا □ كونشيرتو البيانو والأوركسترا. فى عام ١٩٦١ زار مصر المؤلف الموسيقي الأرمينى الشهير "ارام خاتشاتوريان" حيث قاد أوركسترا القاهرة السيمفونية وهو يقدم بعض مؤلفاته فى القاهرة وبيروت. وكان لقاؤهما حدثا له الثر الكبير, حيث قام الموسيقار خاتشاتوريان بدعوة عزيز للذهاب إلى موسكو ودراسة التأليف معه. وهكذا تم.

وفى عام ١٩٦٩ عاد الشوان الى مصر وقرر التفرغ للتأليف الموسيقى فكتب موسيقى باليه "إيزيس وأوزريس" وسجلت فى المانيا وعزفها أوركسترا لايبزيج ، وبعد حياة فنية حافلة ثرية توفى عزيز الشوان بالقاهرة فى الرابع عشر من أيار ١٩٩٣.

وقد ظل الشوان على مدى ثلاثين عاما يسعى لتقديم أحد أعماله الكبيرة على مسرح دار أو برا القاهرة ولم يتحقق ذلك إلا فى أول يوليو ١٩٩٤ حيث عرضت أوبراه "انس الوجود" لأول مرة.

تميزت الأعمال الموسيقية في هذه المرحلة أنها عميقة وتحتاج إلى آلات كثيرة. وبالرغم من أن الأوركسترا التي تحتاجها هذه المؤلفات كانت صغيرة مبدئيا إلا أنه أصبح من الضروري تطوير مفهوم الأوركسترا، وبدأت آلات غربية تظهر بكثرة في الأوركسترا العربية.

من الخصائص الأخرى التي تميزت بها موسيقى هذه المرحلة وهي ظاهرة بوضوح في أعمال عزيز الشوام وخاصة في اوبرا "أنس الوجود" هي تعدد الأصوات وتعدد الإيقاع وحرية إدخال إيقاعات جديدة غير تقليدية. كما أن الموسيقى العربية أخذت تتميز باستخدام جمل لحنية قصيرة مترددة مثل الإيقاع الخاص وغيره (ostinato) ، وطريقة غير متجانسة أكثر فطرية لإنتاج الموسيقى وأداءها. (شكل رقم ٣)

واعتبر الشوان مؤلفاته "موسيقى مصرية راقية" تعتمد على موارد وتقنيات موسيقية متعددة، وتشكلها فيما أسماه "أسلوب علمي". وبالنسبة له إن "الموسيقى الحقيقية" تعبر عن شخصية الملحن وهويته القومية وعمق تدريبه ومدى موهبته .

كان الشوان قوما ولكنه منفتح عالميا على العالم رغم جذوره الراسخة في مصر. كان لهذا الانفتاح أكبر الأثر ليكتب الموسيقى في ثقافات متعددة وأفكارًا ولغات وأساليب موسيقية مختلفة. تشكلت رحلة حياته وموسيقاه من خلال المساهمات التي قدمتها الدراسات الثقافية العالمية التي ازدهرت في القاهرة في القرن العشرين. يمكن النظر إلى موسيقاه على أنها تجسيد لمشروع مصر القومي والحداثي كما هو مثالي من قبل شريحة النخبة المصرية العالمية التي كان ينتمي إليها خلال النصف الثاني من القرن العشرين.

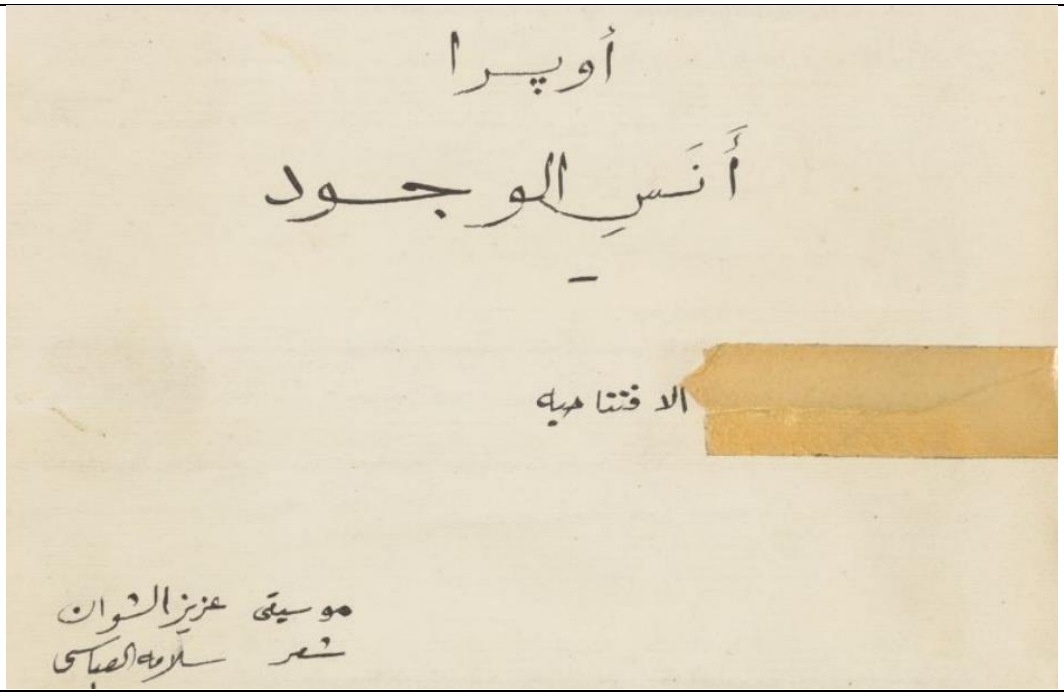

شكل رقم ١٢

الصفحة الأولى
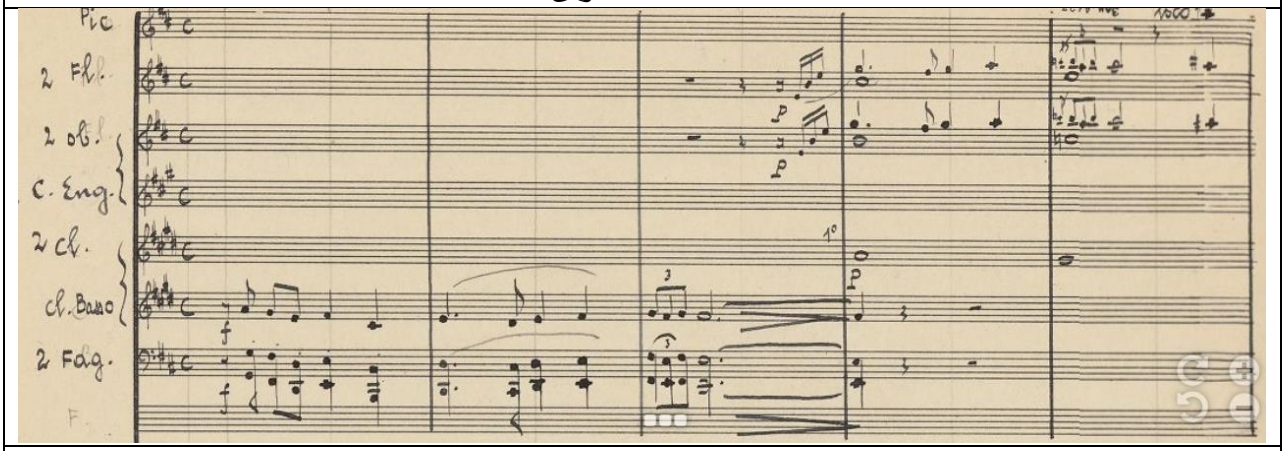
شكل رقم ٢ ب

اللحن الافتتاحي لأوبرا "أنس الوجود" حيث يبدأ بأسلوب اللايت موتيف الذي يخصصه لشخصية "أنس"
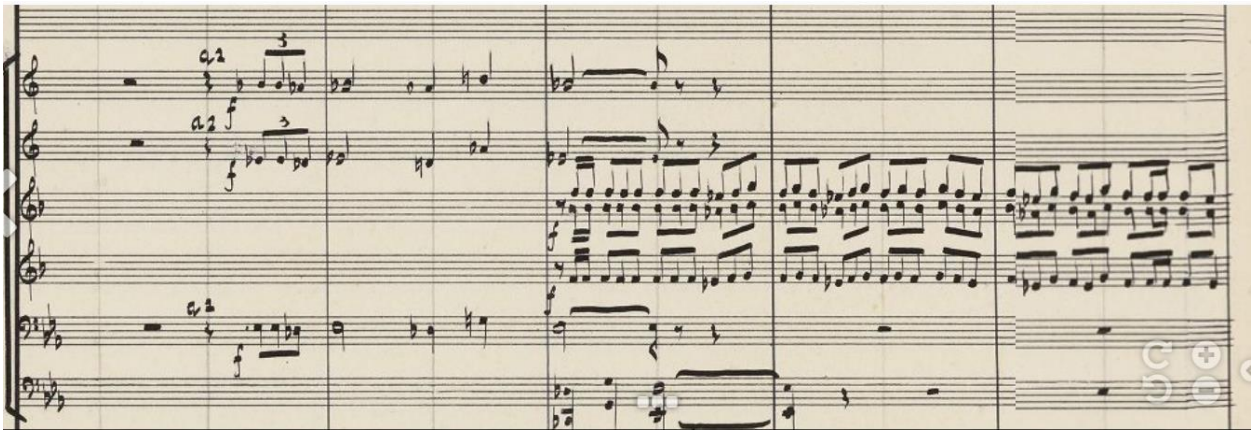
شكل رقم ٣

أسلوب الأوستيناتو المعدل ليغطي على اللحن القصير الإفتتاحي
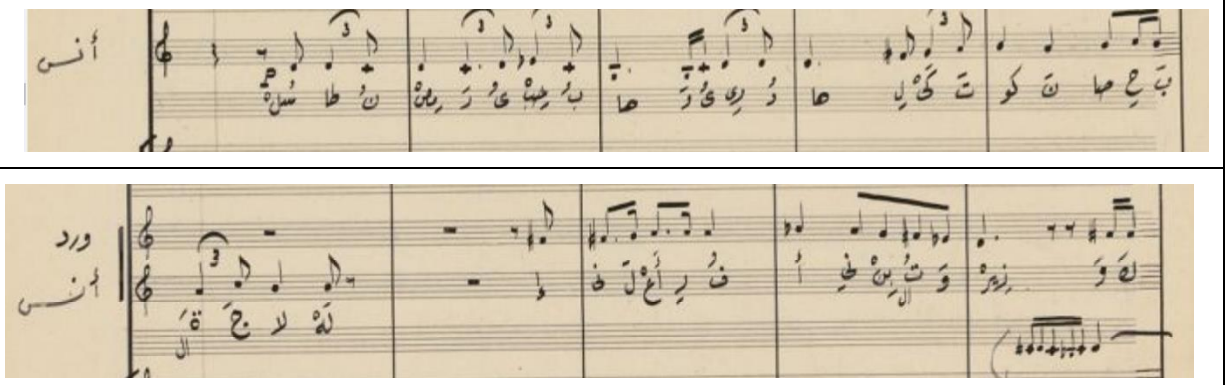
شكل رقم ٤

الأسلوب الغنائي الدرامي للحوار بين "أنس" و "ورد"
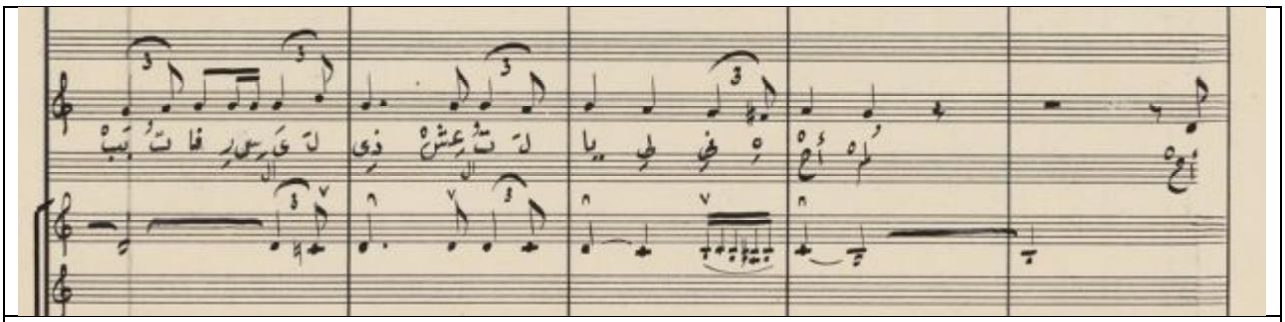
شكل رقم ٥

التنويعات الصوتية الصعبة في الغناء بين "أنس" و "ورد"